المثل الكامل فى المربى

بقلم فضيلة الاستاذ الجليل محمد أحمد المدوى

لا أريد أن أعرض للأستاذ من جهة ماينبغى له من فن التربية : فذلك شىء يهم رجال هذا الفن ، وربما كانوا أقدر عليه منى ، وإنما الذى يعنينى بحث حال الأستاذ والمربى من الوجهة الخلقية الدينية ، وفى اعتقادى أن هذه الناحية قد يفيد الأستاذ منها خيرا كثيرا ، لذلك رأيت أن أصور لإخوانى وأبنائى من معلمى المدارس الأزامية المثل الكامل من هذه الناحية ، وأملى كبير فى أن أوفق ولو بعض التوفيق فى تقريب هذا المعنى إلى نفوس الأساتذة والمربين .

إن المعلمين يعرفون أن التلميذ صورة من أستاذه ، وصدى يتردد فى أنحاء الأرض لصوت معلمه ومربيه ؛ وبمقدار ما يكون لأستاذه من سمة طيبة ، وخلق مرضى ، يكون لذلك المتعلم الناشىء من سيرة حميدة ، واستقامة مرجوة .

إن نفوس النشء بين يدى الأستاذ كجبنة طيعة يستطيع أن يهيها من الصور ماشاء وشاءت له نفسه ، فى استطاعته أن يصورها نفساً ملكية ، لا يخطر بها شر ، ولا تفكر فى خبث أو فساد ، فى استطاعته أن يحفزها إلى العمل المنتج المفيد ، وينفلها من وهدة الكسل والبطالة ؛ نعم أن فى مقدرة الأستاذ بما له من الهيمنة الروحية على نفس طلابه أن يجعلها خيراً محضا ، ونفعاً عاما للإنسانية ، وسعادة شاملة لها ولما يتصل بها من أفراد وجماعات ، لا بالقول المزخرف ، والعبارة الخلابة ، فكثيراً ما نرى للعلم من حلاوة الأسلوب ، وطلاء القول مالا يقف عند حد ثم لا نجد له أثره المرجو ، والغاية التى نطلبها فى نفوس تلاميذه وطلبته

إذن هناك شىء فوق قوة البيان ، وعذوبة اللفظ ، وفكاهة الأسلوب ، هو العنصر الفعال فى نفوس الطلاب ، وهو السحر الحلال فى التأثير على النشء والسير بهم إلى حيث الخلق والفضيلة ، ذلك الشىء هو الصورة التى يجدها الطالب من أستاذه ، وترتسم له فى خياله ، وتقوده وهى صامتة إلى حيث ينبغى له من سعادة ، وينطلب من سؤدد .

تلك الصورة هى المثل الكامل فى الأستاذ وهى رائد الطالب الذى لا يخطىء والقياس الذى لا يعقم ، والمنطق الذى لا يلتوى ، غير أن هذه الصورة أو ذلك المثل الكامل ليست من السهولة إلى حد أن ينبه إليها المعلم فينتبه ، أو يوجه اليها فيتوجه ، وإنما هى مران طويل على الخلق ، وترويض على التؤدة والاتزان ، وإشعار للنفس بثقل المهمة الملقاة على عاتقه أمام ضميره وواجبه ، وأمام شعبه وأمته ، وإقتناعه أنه مسئول أمام الله والناس عن هذه المهمة الشاقة ؛ والوزر الثقيل .

نعم لا يستطيع الوصول لذلك المثل الكامل فى التربية إلا من أشعر قلبه الخشية من إله قادر عليم ، يحاسبه على ما أودع بين يديه من أمانة ، واسترعاه من أبناء ، وأمن بذلك المسئولية إيمان الواثق المطمئن ، إيمانه بسؤاله عن صلاته وصومه . وزكاته وحجه .

هنالك وهنالك فقط يحاسب نفسه على كل حركة له بين طلبته وتلاميذه ، كما يحاسبها على مسلكه فى الحياة ، وسيرته بين قومه ومشيرته ، وهنا لك يكون حسن الهيئة ، عف اللسان والنظر ، فيه وقار الشيوخ ونشاط الشباب ، وإباء الحكماء ، يلقى بشره وتلاميذه بوجه مستبشر ، لا يطمعهم حلمه ، بل يشتد عليهم فى موضع الشدة ، ويلين فى موطن اللين ، يغضب لانتهاك حرمة ، أو ضياع حق ، ويرضى للقيام بالواجب ، يشعر أبناءه ، أنه ساهر على مصلحتهم ، جد حريص على مستقبلهم ، يعاونهم على شق طريق الحياة ، وانتهاج مسلك الثقافة والتعليم ، وإنه إذا قسا عليهم فلمصلحتهم ، وإذا كلفهم عملا شاقا فلسعادتهم ، ذلك هو المثل الكامل فى الأستاذ والمربى .

أما رجل حظه من تلك المهنة دراهم يتقاضاها وراتب يحصل عليه وسواء عليه بعد ذلك أحصل تلاميذه على شهاداتهم المنشودة ، وغايتهم المرجوة أم لم يحصلوا — رجل ذلك حاله ، من الظلم الفاضح أن ينتسب لهذه الطائفة — طائفة التعليم والتربية — من القلم أن نطالبه بأن يكون المثل الكامل فى التربية والتعليم ، وفى الحق أن ذلك الصنف شر مستطير على نفوس النشء ، وقدوة سيئة لأبناء اليوم ورجال الغد ، ولا تكاد تسمع من ذلك النوع من الأساتذة لسانا عفا ، أو قلبا راضيا ، أو نفسا مطمئنة ، وإنما يرى منه تلاميذه فى أكثر دروسه شكاة مرة من قلة الراتب ، وضيق ذات اليد ، وترى منه دائما شغفا كبيرا بالمال ، وتعلقا بالمادة ، وقد تراه من أجل ذلك رث الثياب ، قذر الجسم ، مقترا على نفسه وأهله فى المأكل والمشرب .

هذا الصنف من الأساتذة والمربين إذا نجح فى تربيته فإنما يربى عبيدا وعجزة ، همهم المال ، وغايتهم المادة ، لا يمتون إلى الحياة الحقة بصلة ، ولا إلى السعادة المرجوة لأمتهم إلا بأوهى الأسباب ، أولئك الأساتذة إن ملأوا الأدمغة بالألفاظ فلن يملأوا القلوب بالفضائل ، وإن شحذوا القرائح بالرياضة فلم يشربوا النفوس وقار العلم ، ولا هيبة الحكمة ، وكل ما استفاده التلاميذ منهم أن يكونوا نسخة من الكتب ، ينطقون إذا استنطقوا ، ويجيبون إذا سئلوا ، ويجوزون الامتحان إذا قدموا إليه

أما أن يكونوا قادة ، أما أن يكونوا أئمة هدى ، أما أن يكونوا أسوة حسنة والمثل الكامل فى التعليم والتربية فذلك دونه خرط القتاد

محمد احمد الغمراوى